تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

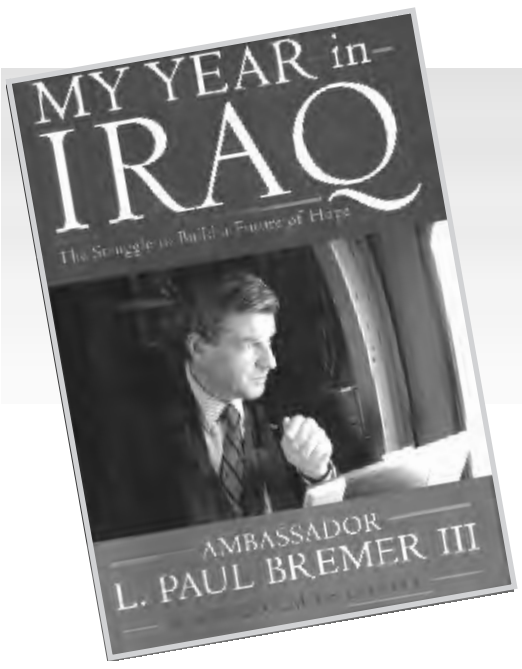

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقةالسادسة والاربعون)

حين رافقتُ الأعضاء التسعة إلى سياراتهم، أدركتُ أن مقاربتنا ذات الخطوات السبع ميتة. لكنني كنت مصمماً على أن العراق الجديد يجب أن يحظى بحكومة دستورية ممثلة. ولم يكن لدينا المزيد من الوقت لكي نهدره.

قررنا أن نعمل على / فكرة دستورٍ انتقالي، آملين بأن ذلك سيجعلنا نتخطى فتوى السيستاني ويسمح لنا بنقل السيادة إلى حكومة عراقية في ظل إطار قانوني يؤسس لبنية سياسية صلبة في العراق، ويحل الديموقراطية بشكل يحمي حقوق الأقليات، وحقوق الإنسان. لكننا أيضاً عقدنا العزم على الالتزام بما جاء في فتوى السيستاني- وأعني أن يتم إجراء انتخابات بأسرع وقت ممكن لاختيار هيئة تكتب مسودة دستور العراق الدائم.

كنا نعلم أن معظم العراقيين لن يحبّذوا فكرة دستور "انتقالي" آخر. كان صدام قد كتب عدة وثائق انتقالية خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية، وأهمل جميع الشروط التي وضعها، وخاصة تلك المتعلقة بحقوق الإنسان. ومن أجل تلبية رؤية الرئيس بوش من أجل عراق جديد، كان يجب أن يوفر الدستور الانتقالي ضمانات لحماية الحقوق الفردية، والتطرق إلى المسألة الشائكة المرتبطة بالفدرالية، وتطبيق نظام الرقابة والمحاسبة للحيلولة دون الوقوع ثانية في قبضة الطغيان. بالطبع، لن يكون النموذج الديموقراطي في العراق مطابقاً لنظيره المتبع في أمريكا. يجب على العراقيين أن يختاروا بنية النظام لديهم. غير أن تلك المبادئ الأساسية ستبقى جوهرية من أجل ضمان استقرار طويل الأمد في بلد تمزقه النزعات العشائرية. وكانت غايتنا زرع هذه الأفكار في الوثيقة الانتقالية بحيث تجد طريقها لاحقاً إلى الدستور الدائم.

في الأيام القليلة التي تلت، استطاع فريق حكمنا في سلطة التحالف المؤقتة تحديد مجموعة من الأعضاء في مجلس الحكم ممن يوافقون على فكرة الدستور الانتقالي. وبعد الحصول على موافقة رايس في ٧ تشرين الثاني على هذه الفكرة، تحدثتُ إلى الدكتور عدنان الباجه جي، الزعيم السنّي الأكبر سناً في مجلس الحكم، والذي شغل منصب وزير الخارجية في الستينيات، وأحد أكثر الأعضاء جديّة وعقلانية. كنت أعرف أن الباجه جي يركز كثيراً على الحقوق والحريات الفردية، وساعد في كتابة مسودة قانون أساسي، مشابه للدستور، للإمارات العربية المتحدة، حيث كان يمضي سنوات منفاه. حين طرحتُ عليه فكرة كتابة دستور انتقالي، تلقف الباجه جي الفكرة واقترح أن يعرضها على أعضاء مجلس الحكم، بصفتها فكرته هو.

في المساء التالي، وفي منزل طالباني، أخبرني الزعيم الكردي بأن الباجه جي عرض فكرة الدستور الانتقالي أمام أعضاء المجلس في ذلك الصباح.

"ما رأيك بالفكرة، سعادة السفير؟ قد يكون من المفيد أن نعرف موقف التحالف قبل المضي قدماً في هذه الخطوة."

كان عليّ أن أكبح ابتسامتي. أخذ الباجه جي فكرة سلطة التحالف المؤقتة وتبناها على أنها له، والآن نجد أن طالباني "يبارك فكرة الباجه جي".

"بصراحة،" قلتُ، "كنا نفضل دستوراً دائماً أولاً. غير أن السيستاني أغلق هذه الطريق. ونريد مخرجاً لهذا المأزق. ربما كان هذا هو الحل. ولكن يجب أن يكون الدستور الانتقالي أكثر من مجرد اتفاقية مبادئ."

وأشرتُ إلى أن وثيقة كهذه يجب أن تحترم الحقوق الفردية، بما في ذلك حرية العبادة، وأن توضح آليات اختيار الحكومة الانتقالية، وتحديد سلطاتها. ولكي نتأكد بأن الدستور سيكون حقاً "انتقالياً"، كان يجب إضافة "فقرة هامة" تشير إلى انتهاء صلاحيته في وقت محدد وأكيد.

لوّح طالباني بيديه، صانعاً دوائر كبيرة، في إشارة إلى موافقته على جميع هذه النقاط. "ولكن،" رفع إصبعه،"نحن الأكراد نريد لهذه الوثيقة أن تتناول همومنا، وخاصة مطالبتنا بنظام فيدرالي- أنت تعرف، من أجل حماية استقلالنا الذاتي."

"سيد طالباني،" أجبتُ، "أنت صديق قديم للولايات المتحدة، ولديك الكثير من المعجبين في واشنطن. أنت وأنا معاً، علينا أن نجد طريقاً إلى الأمام، وأنت ما تزال رئيساً لمجلس الحكم." كان الحكيم، الإسلامي الشيعي، هو الذي سيتبوأ الرئاسة بدءاً من الأول من شهر كانون الأول.

متحمساً، وعدني طالباني قائلاً، "سوف يجتمع المجلس كل يوم، سعادة السفير."

وفيما كنا نناقش التكتيكات العملية، تبلورت في ذهني الصعوبات التي يجب علينا تذليلها. كان ثمة رهط من المشككين في البنتاغون ممن يترتب علينا إقناعهم.

في العاشر من تشرين الثاني، ومع تأكيد الطالباني أن المسار الجديد هو موضوع "نقاشات مكثفة" في مجلس الحكم، قررت أنه يجب التحدث إلى بعض المسؤولين الكبار في واشنطن. لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار عمليات الشد والجذب السياسية الجارية في العراق، التي غالباً ما تثير التشويش، كنت حريصاً على التأكد بأن المسؤولين في واشنطن يمتلكون فهماً واضحاً لاستراتيجيتنا.

كان روبرت بلاكويل من مجموعة استقرار العراق في مجلس الأمن القومي قد وصل إلى بغداد قبل بضعة أيام للاطلاع على كيفية سير الأمور لدينا بخصوص مبادرتنا مدّ اليد إلى السنّة. كانت مهمة بناء الجسور، الصعبة والمعقدة، مع السنة واحدة من أولوياتنا الأولى، وكنت سعيداً أن موظفاً من داخل مجلس الأمن القومي موجود هنا ليشهد التقدم الذي نحرزه، وتقديم المقترحات لتحسين العمل. حين اقترحت رايس زيارته، وافقتُ، على أمل أن يقوم بوب، الذي عرفته منذ عقود، بتنسيق نشاطاته معي.

وكان مؤكداً أن بوب سوف يقوم بالكتابة إلى رايس عن مشاهداته. ولذلك كنتُ حريصاً على أن يفهموا طبيعة مقاربتنا الجديدة في البنتاغون ووزارة الخارجية.

طلبتُ من رومان مارتينز كتابة مسودة رسالة إلى رامسفيلد، وباول، ورايس، لأخذها معي، وبالتالي تكون متوفرة لهم، قبل انعقاد اجتماع للجنة المدراء في مجلس الأمن القومي، في وقت لاحق من ذلك اليوم.

"سوف أحاول أيضاً الاتصال بوزير الدفاع ووزير الخارجية باول قبل ذلك التاريخ،" قلتُ له.

وكما هي العادة، كانت رسالته دقيقة ومركزة، وقد أحاطت بجميع جوانب تفكيري: "إن مسارنا الجديد سيتيح لمجلس الحكم، بالعمل مع محامين عراقيين، والتنسيق مع سلطة التحالف المؤقتة، كتابة مسودة الدستور العراقي. إذا بدأنا العملية مباشرة، نأمل بأن ننتهي من كتابة الدستور في منتصف آذار، ومن بعدها نقيم استفتاء وطنياً لإنشاء برلمان وطني، مع حلول صيف ٢٠٠٤، سيقوم البرلمان باختيار الحكومة العراقية، التي ستتسلم السيادة من التحالف. ستقام جولة أخرى من الانتخابات في أسرع وقت ممكن، لاختيار المؤتمر الدستوري، لكتابة دستور دائم للعراق."

ومن ثمّ خلاصة الرسالة: "حتى الآن، تجاوب أعضاء المجلس بشكل إيجابي مع هذه الأفكار، بالرغم من أنه لم يتم بعد تقديم خطة رسمية. هذا البديل سوف يزيح الكثير من المخاوف حيال الجدول الزمني السياسي، الذي أثاره أعضاء مجلس الحكم خلال الشهور القليلة الماضية. سوف يعطي الأكراد والسنة، الذين تقلقهم الهيمنة الشيعية، الطمأنينة بأن الحريات الأساسية مصونة، وأن الفيدرالية قائمة في العراق، على الأقل خلال المدة المسماة في الدستور. سوف يلبي هذا طموح المتدينين الشيعة بأن دستور العراق الدائم سيُكتب من قبل هيئة دستورية منتخبة مباشرة. أخيراً، سيلبي رغبة الجلبي والباجه جي والحكيم بإقامة حكومة عراقية، ذات سيادة كاملة، بأسرع وقت ممكن."

واختتمت الرسالة بالقول إن هذه الخطة تقع على "الحافة الخارجية" لما هو مقبول، ويلبي مصالحنا في العراق. حتى وإن احتوى الدستور الانتقالي لغة تلزم الحكومة الوطنية باتباع مسار سياسي واضح، وتطبيق حقوق أساسية، فإن احتمال أن يؤدي هذا إلى استقرار العراق، ما زال بعيداً، وبنسبة ٤٠ إلى ٦٠ بالمئة. لكننا نحتاج، لكي ننجح، إلى إرادة سياسية، كتلك التي جعلت تنفيذ الحرب نتاجاً "لإرادة وتصميم" كبيرين.

بعد توقيع الرسالة، ناقشتُ قضية التمرّد مع بيل، رئيس المحطة الاستخبارية، والذي استعرض معي تقييم وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) لآخر مستجدات الوضع الأمني في العراق. "سوف تتلقى الوكالة هذه الوثيقة في الوقت المحدد، غداً، قبل اجتماع مدراء مجلس الأمن القومي." شرح، فيما كان يناولني الوثيقة المؤلفة من صفحات أربع.

كان طرح المحطة مقنعاً، ومقلقاً: "إن العدو يعتقد بأن القيادة الأمريكية تركز على استراتيجية خروج، أكثر من تركيزها على تنفيذ الحرب." كما أن التحالف يفتقر لرسالة واضحة يقدمها إلى الشعب العراقي. وبصفتي مديراً مدنياً، كنت مدعواً للتعليق على تقرير المحطة. وافقتُ على التقييم العام، لكنني قلت إنني لا أوافق على أن المشكلة لها علاقة بعدم وضوح الرسالة. "إننا نعطي العديد من العراقيين الانطباع بأن الولايات المتحدة مصممة على مغادرة العراق في أقرب وقت ممكن." ورأيت ضرورة وضع استراتيجية عسكرية "لتوفير أمن مستقر ودائم للشعب العراقي بصفته المطلب الأكثر أهمية للنجاح المطلق."

حين غادر بيل، فكرتُ بأننا بدأنا ندخل منعطفاً خطيراً في العراق. إذا استطاع أولئك الذين ينادون بتسليم مبكر للسلطة من النجاح، فأنا لا أرى في الأفق إمكانية تجميع مكونات حكومة عراقية ممثلة. ولابد أن ينجح المتمردون. وبالمقابل، إذا نجحت القوى الطائفية والإثنية في العراق، سينهار البلد ويتفتّت. وسيتبع ذلك حرباً أهلية. وسوف ينجح المتمردون.

تذكرتُ كلمات الرئيس بوش في آخر مرة تكلمنا فيها، إننا لن نفشل في العراق.

وكنتُ أوافقه الرأي. إننا أمام العراق مستقبل من أمل، وسوف أفعل قصارى جهدي للوصول إلى هناك.

أمضيتُ العاشر من تشرين الثاني، شارحاً الخطة السياسية الجديدة لأبرز الزعماء الشيعة. وقد لاقى الطرح ارتياحاً لدى أعضاء مجلس الحكم المرتبطين بحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الاسلامية، وكانوا على ثقة كاملة بأن السيستاني سوف يدعمه. وطلبتُ من ميغان وروما ن التحدث إلى الجلبي، والذي بدا مهتاجاً بشكل غير لائق، وأعرب بوضوح عن معارضته لانتخابات وطنية مبكرة. كان واضحاً أنه يعي ضعف المساندة وراءه بين عامة الشعب العراقي. وهكذا، ففي الوقت الذي كان يريد حكومة عراقية ذات سيادة، في أقرب وقت ممكن، كان يظن أنه يستطيع ممارسة نفوذ أكبر لو أنه يتمّ اختيارها من خلال توسيع مجلس الحكم بكل بساطة، عوضاً عن إجراء الانتخابات.

ثمّ بدأتُ بسلسلة من المكالمات الهاتفية مع كبار أعضاء مجلس الأمن القومي، بادئاً برامسفيلد. لم يكن قد اتيح له الوقت لدراسة رسالتنا، فقمت بإطلاعه على خطتنا. بدا متحمساً بشكل معتدل، لكنه قال إن رايس وباول وتشيني كانوا قد أخبروه بأن المسار الجديد سوف يستغرق وقتاً "طويلاً". هل نستطيع وضع "نقاط علام" بشكل أبكر: ٣٠ كانون الثاني، ٢٠٠٤، بدلاً من ١٥ آذار، لإنهاء العمل بالدستور الانتقالي، على سبيل المثال؟

جلال الطلابانى

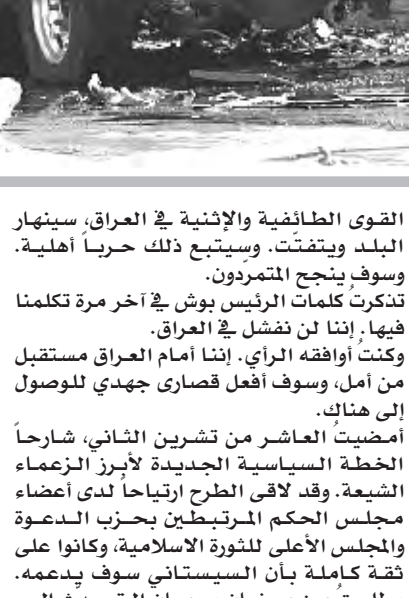

كولن باول

قلتُ له إننا حتى وإن تم تجهيز دستور انتقالي في مرحلة أبكر، فإن الانتخابات لاختيار برلمان انتقالي سوف تتحكم بتوقيت تسليم السيادة. كما أن توقيت موعد الانتخابات سوف يحدده مدى السرعة في الإعداد لقائمة انتخابية، وقانون انتخابات، وقانون أحزاب سياسية. أخبرنا مستشارنا في الهيئة الوطنية للأنظمة الانتخابية أن هذا ربما يستغرق ستة إلى تسعة أشهر، لإكمال عمليات تسجيل الناخبين. لكنني وافقتُ على تحديد العمل بالدستور الانتقالي إلى الأول من آذار.

واقترح رامسفيلد أن أقوم بشرح هذا إلى رايس وباول، ونائب الرئيس.

"كيف يمكن لهم أن يُجروا انتخابات في مناخ أمني كهذا؟" سألت رايس، بعد أن وصفتُ العملية، خلال مكالمة هاتفية، بعد منتصف الليل بقليل، من بغداد.

"حسن، ربما تتحسّن الحالة الأمنية،" قلتُ. "ولكن حتى وإن كان ثمة عنف خلال الانتخابات، سيكون هذا المسار أفضل بكثير من حالة السكون التي نمرّ بها الآن."

"جيري،" قالت، "ما زال بعض الناس هنا يميلون إلى تسليم السيادة إلى حكومة معينة تعييناً، ومن دون دستور."

واتضح لي أن هؤلاء هم من المكتب السياسي في البنتاغون. قلتُ لها، "إنني أعارض بشدة تلك الوجهة. إنها لا تخدم مصالح الرئيس أو مصالح أمريكا في العراق. إنني لا أقدم حلاً مثالياً، يا كوندي، ولكننا وجدنا في الأقل مسلكاً لمنح الحياة السياسية في العراق بنية، عبر الدستور الانتقالي، وإشراك الشعب العراقي في العملية السياسية خلال عام ٢٠٠٤."

"إني أساندك، ولكن يجب أن يتمّ هذا في وقت أبكر." قالت. "ما هي توقعاتك بشأن نقل السيادة؟"

"حسن، إذا أخذنا تقديرات لجنة تسجيل قوائم الناخبين، ولم نخسر أي وقت، سيكون باستطاعتنا إنجاز كل هذا في شهر آب،" قلت.

بعد مضي عشر دقائق، اتصلتْ كوندي هاتفياً. "في هذا الاقتراح الجديد، من المهم جداً أن تشرح الوضع، عبر الفيديو اللاسلكي، خلال اجتماع مع الرئيس في مجلس الأمن القومي.ولكن سيكون من الأفضل أن تستقل طائرة وتعود صباح غد، بتوقيت واشنطن، لإطلاع أعضاء المجلس، واللقاء بالرئيس وجها لوجه." وبما أن الوقت كان قد تجاوز منتصف الليل في بغداد، كان عليّ أن أتحرك على الفور إذا كنتُ حقاً أريد أن أحضر اجتماعات مدراء مجلس الأمن القومي، لاحقاً في نفس اليوم.

وفيما كان بات كيندي يحاول إيجاد طائرة تقلني، مع مجموعة صغيرة من فريق سلطة التحالف المؤقتة، لحضور اجتماع اليوم التالي، رحتُ أكمل اتصالاتي بالآخرين على قائمتي.

حين كلّمتُ نائب الرئيس، عبّر عن قلقه بخصوص الجدول الزمني. "ولكن من جهة أخرى، يساورني قلق أيضاً بأن إجراء انتخابات مبكرة يمكن أن يصب في صالح المتطرفين والإسلاميين،" قال. اتفقت معه في تلك النقطة، لكنني أكدتُ أنه يجب أن نتحرّك خارج ذلك المربع الموجودون فيه الآن.

في مكالمتي التالية، عبّر كولن باول عن خشيته من أن الإطار الزمني مايزال طويلاً. (كنتُ نفسي أخشى أن يكون الوقت مضغوطاً جداً.) ولكنه قال في النهاية إنّه راضٍ عن هذا الخيار العملي. مع ذلك، تظل الأولوية الأولى هي "معالجة الحالة الأمنية."

كأنما للتأكيد على كلامه، سمعنا نيران أسلحة أوتوماتيكية تأتي من جهة طريق المطار.

كانت مكالمتي الأخيرة، قبل الصعود في الموكب الذي سيقلني إلى المطار، في تلك الليلة المتأخرة، هو الطالباني. "آسف لإزعاجك في هذا الوقت المتأخر، سيادة الرئيس،" بدأتُ. "غير أن حكومتي تحتاج لبضعة أيام لدراسة خطة طالباني- الباجه جي. اعمل ما في وسعك، من فضلك، لجعل مجلس الحكم هادئاً."

"سعادة السفير، بالطبع سأعمل ما في وسعي."

"شيء آخر: عليك الحصول على مباركة السيستاني على هذه الخطة. ارسل أحداً ما إلى النجف، أو اذهب بنفسك إذا لزم الأمر. لا أستطيع أن أطلب من حكومتي الموافقة على المسار الجديد إذا لم يكن لدي ضمانات بأن النجف توافق عليه."

"أفهم ذلك. رحلة سعيدة وحظاً موفقاً، سعادة السفير."

كان الجو بارداً داخل الجوف المفتوح للطائرة، من طراز ستار ليفتر (C-141)، الجاثمة في أرض المطار. كان فريقي من سلطة التحالف المؤقتة يجلس في غرفة الشحن، فوق مقاعد صلبة، قاسية، بالقرب من الجرحى، وهم ينتظرون أن تفرغ آخر سيارة إسعاف حمولتها. كانت النقالات معلقة في شكل صفوف، بواسطة أحزمة من النايلون، وتمتد من أول الطائرة حتى ذيلها. كنتُ أسمع الأنين، والصرخات المتقطعة كلما نقل الطاقم الطبي حمّالة الجرحى من مكان إلى آخر. غير أنّ معظم الجرحى كانوا مخدّرين. أو أنهم كانوا يتحملون الألم بصبر.

وفيما كنتُ أرتجف تحت معطفي الرياضي، كنتُ آمل أن يكون الجرحى أيضاً محميين من البرودة القاسية. كانت العاصفة الخريفية الأولى قد تسببت بهطول الثلوج فوق جبال كردستان، مما أدى إلى جبهة باردة عبر وادي النهر، باتجاه وسط العراق، محركةً في طريقها عاصفة من الصقيع.

كان دان سينور وبرايان مكورماك ورومان مارتينز، قد أسرعوا للخروج معي من المنطقة الخضراء، بعد منتصف الليل، باتجاه طريق المطار. نحتاج إلى خمس ساعات للوصول من هنا إلى مدينة رامشتين في ألمانيا، ومن هناك نستقل طائرة أخرى إلى واشنطن. حالما وصلتُ إلى واشنطن صبيحة ذلك اليوم، كان يترتب علي حضور اجتماع مدراء مجلس الأمن القومي، في البيت الأبيض. كان من المقرر أن تقلع الطائرة في بغداد في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لكن الطقس السيء تسبب بتأخير قدوم طائرة (بلاك هوكس).

خلفنا كانت المرضات وأعضاء الفريق الطبي، بملابس الطيران الرمادية، والبزات المموهة، الصحراوية يتنقلون بفعالية كبيرة، وعطف واضح، بين النقالات الممددة، يتفحصون السيرومات الطبية، ويراقبون إشارات هامة، ويعدلون نسبة الأوكسجين في حالة خطيرة جداً لجريح يحمل جهاز الإنعاش. كانت الضمادات تغطي رأسه بالكامل، في حين كان أنبوب التنفس يخرج إلى الأمام مثل أنبوب الغطّاس.

إنها حروق، قلتُ في نفسي، متخيلاً سيارة متفجرة تحيل سيارة هامفي إلى كتلة من النيران. أغمضتُ عيني، وصليتُ من أجل أولئك الشبان الأمريكيين الشجعان. خلال تجوالاتي في العراق، التقيت الكثير من الجنود، بعضهم يحرس نقاط التفتيش، والبعض الآخر في دوريات، وبعضهم يساعد في إعادة بناء البلاد. وبالرغم من حرارة الصيف القائظة، والعواصف الرملية، والآن هذا المطر القارس، كان جنودنا على أهبة الاستعداد لإلحاق الهزيمة بالمتمردين. كانت معنوياتهم عالية، في كل مرة أتحدث إليهم، راضين بتقبل كل الأخطار- وكل التضحيات.

إن الطيران على متن هذه الحوامات في الليل، وفي طقس سيء كهذا، يمثل خطراً حقيقياً، ولكنه ليس بنفس الخطورة، أثناء الطيران نهاراً.

يتبع